# جلال الدين السيوطى

(٨٤٩ - ٩١١ هـ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥م)

ومنهجه فى المصدر اللغوى والأدبى

# المزهـــــــــر

# نموذجـــــــاً

إعـــداد

د/ أحمد يوسف خليفة

قسم اللغة العربية - بكلية الآداب بسوهاج

جامعة جنوب الوادى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م

# جلال الدين السيوطى[1](٨٤٩ هـ/٩١١هـ)
# ومنهجه فى المصدر اللغوى والأدبى
# المزهر نموذجاً

قد يثار تساؤل: أبقى فى السيوطى موقع لم تقع عليه عين باحث أو كاتب؟ والإجابة عن هذا أن السيوطى الموسوعى ما زال أرضاً خصبة للبحث والتنقيب. وحفريات الباحثين فى نتاجه قادرة على كشف المزيد من مكنون أسرار أعماله.

وحسب تلك المؤتمرات المتعاقبة التى تكشف عن ثاقب فكره، وحنكة رأية، وسعة علمه وأدبه، وتهدف إلى صيد درره ولآلئه.

إنه العالم الأديب الذى رزق- كما قال: "التبحر فى سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع، على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة"[2].

وحسبه أيضاً حضوره على ستمائة عالم منهم خمسون ومائة فى الحديث، أجازه أكثرهم، وأنه صنف أكثر من خمسمائة كتاب فى فترة أشيع عنها أنها فترة الظلام والضعف والضمور، بعد تلك الهجمة التتارية المدمرة للثقافة العربية الإسلامية فى آفاقها الإنسانية، وفى أثناء انحسار المجد العربى وغروبه فى الأندلس، فقبل حياته وفى أثنائها كانت مأساة الثقافة العربية والإسلامية ونكبتها، وضياع معظم نتاجها، لكن مصر كانت آنئذ الحرم الآمن والروضة العلمية والمورد العذب - بين بلدان المشرق كفارس والعراق والشام والمغرب والأندلس فهى التى حفظت الثقافة العربية الإسلامية وأصبحت مقصداً لكثير من العلماء المسلمين الفارين من الأندلس والقادمين إلى مصر، حيث كثرة المدارس والأروقة والمكتبات، والاستضافة بالمجان لطلاب العلم والبحث، فمصر "أم العالم وإيوان الإسلام، وينبوع العلم والصنائع"[3].

---

(١) راجع ترجمته فى:

| | |
|---|---|
| حسن المحاضرة | للسيوطى، الجزء الأول. |
| شذرات الذهب | ابن العماد الحنبلى، الجزء الثامن. |
| الضوء اللامح | للسخاوى، الجزء الرابع |
| كشف الظنون | لحاجى خليفة. |
| الأعلام | للزركلى |
| تاريخ الأدب العربى | لكارل برد كلمان، الجزء الثانى. |

(٢) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٥٣، القاهرة ١٩٣٠.

لقد عاصر السيوطى ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٣)، والعينى (ت ٨٥٥) والسخاوى (ت ٩٠٢)، وعاصر اليقظة العلمية في مصر، وما صاحبها من محاولة إعادة جمع شتات المؤلفات وإيواء للعلماء وتقدير لدورهم، كل ذلك يسر للسيوطى ما وصل إليه من نتاج علمي وأدبي.

تملك السيوطى مقومات البحث والدرس فهو سليل أسرة من علية القوم، ولها شهرتها الأدبية والعلمية، انقطع رجالها لطلب العلم، وحضروا على شيوخ العصر، كما يذكر فى ترجمته.

"أما جدى الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة، ومن مشايخ الطريق،وسيأتى ذكره فى قسم الصوفية، ومن دونه من أهل الوجاهة والرياسة، منهم من ولى الحكم ببلده، ومنهم من ولى الحسبة"[٤].

لقد حفظ القرآن ولما يبلغ الثمانى السنوات، وحفظ العمدة وألفية ابن مالك واستوعب كتب الفقه والأصول، وأجيز بالتدريس في السابعة عشرة من عمره، عندها بدأ التأليف[٥]، ومن ثم شهد له أساتذته بالتقدم والتفوق وتولى الإفتاء وإملاء الحديث.

لقد كانت علاقة السيوطى بعصره علاقة رجل العلم المعتز بكرامته، الحافظ ماء وجهه، الأبى الذي يعلى من قدره كعالم، يجلس في بيته، يؤتى إليه ولا يهرول وراء حاكم أو وال طلباً لمنصب أو جاه.

وكان لنشأته الدينية إيمان قوى بكل ما له من سبيل إلى الإفصاح عن ذلك فى كتبه وفى مقاماته، فهو شديد الإيمان بإجلال العلماء، وهو المدافع عن أولياء الله الصالحين، وهو الداعي إلى الأخلاق النبيلة.

"فالسيوطى كإمام جليل من أئمة زمانه، وعالم كبير من علماء الإسلام، وكصاحب قلم وفكر وزهد ورسالة،وجد من طبيعة كيانه أن يدعو إلى الخير، وأن ينهى عن الشر، وأن يرشد وأن يزجر، وهذه المبادئ تقع من العقيدة الإسلامية فى صلبها، فإن مواد الدستور الإسلامي الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ابتغاء سعادة كل الناس، وصلاح المجتمعات كل المجتمعات[٦].

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة/ ٣٣٦.
(٥) راجع نفسه /٣٣٦.
(٦) د. مصطفى الشكعة،جلال الدين السيوطى كاتباً وأديباً، جلال الدين السيوطى، بحوث ألقيت مؤتمر السيوطى ٦-١٠ مارس ١٩٧٦ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٩٣.

السيوطى شديد الحب لبلده الذي ينسب إليه، وإن كان لم يره الحب الذي جعله يشدو بجمال هذا البلد ويختصه بإحدى مقاماته[٧]، ومما ورد على لسان الراوى فيها "فرأيت بها أنهاراً كالفضة، وأزهاراً طرية غضة،وتغريد أطيار، وغدير مهدار، وجنات وبساتين محفوفة بأنواع الرياحين، والورق مُكلل من الطل بالجمان، ورماح الأغصان عليها أعلام من المرجان".

والسيوطى له إسقاطاته الأخرى فى المقامة، فهو كعادته يتوارى من وراء بطل المقامة ليبرز براعته اللغوية، ومقدرته النحوية التى يزعم أنه يعجز بها الآخرين، أو يربط ألسنتهم عن أن يجيبوا على ما يوجه إليهم من أسئلة، ومنها تلك المحاورة التى كانت بين البطل وبين أحد الرجال، والتى يقول فيها البطل:

"اسمع مقالى أيها القالى، وأجب عن سؤالى أيها السالى: ما كلمة إذا كثر عرضها قل معناها، وإذا ذهب بعضها جل مغزاها؟ وأى عامل يعمل فيه معموله، ولا ينقطع مأموله؟ وأى اسم مشترك بين أفعل التفضيل والصفة المشبهة؟ وأى كلمة هى اسم وفعل وحرف، لم ينبه عليها أحد من علماء النحو والصرف؟...".

وبعد اعتراف المحاور بالعجز يجيب السيوطى عن هذه الأسئلة موضحاً ما يتصل بها من مسائل.

ولا تخلو إجابات السيوطى- كعادته- من ألوان الزهو كتفسيره للكلمة التى هى اسم وحرف وفعل بلى، فإنها حرف جواب واسم بزيادة المد، وفعل بمعنى : اختبر. وهذه من مستخرجات لم أر أحداً نبه على أنها تجمع الثلاثة".

فالزهو سمة من سماته الحريص عليها فى كثير من أعماله، ومنها ما أورده فى مقدمة كتابه "حسن المحاضرة" والتى يذكر فيها ما طالعه من مؤلفات عند كتابته هذا المؤلف[٨].

وفى مقاماته التى كتبها فى خصومه يزهو بتفوقه العلمى عليهم، وبدحض ما يدّعوته فى مفترياتهم وأباطيلهم[٩]، وكذلك فى مقاماته التى يعالج فيها قضايا أدبية أو فقهية.

---

(٧) راجع شرح مقامات جلال الدين السيوطى، تحقيق سمير محمود الدروبى، ط الأولى ١٤٠٩/١٩٨٩ ومؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٣٤/١.

(٨) راجع، حسن المحاضرة ٣/١-٤.

(٩) راجع مقامتى: الكاوى فى تاريخ السخاوى. الدوران الفلكى على ابن الكركى، شرح =

كان السيوطى حاد الطبع، شديد الغضب، عنيد الخصومة، غضبته على عمل ما أو على شخص تكلفه الكثير من الجهد والتعب والحرقة، لذا تعددت محاور خصوماته، منها ما كان مع بعض الفقهاء،ومنها مع بعض القضاة، ومنها مع بعض المتصوفة، يرد وينقض فى سخرية لاذعة، معتزاً بقوة شخصيته وبآرائه، صلباً فى مواقفه مهما غضب الآخرون، يكتب الرسائل أو المؤلفات مفنداً وربما مجرحاً.

لما توجه إلى السلطان قايتباى لابساً الطيلسان مخالفاً العرف وتقاليد العصر، ليم على ذلك، فكتب كتاباً بعنوان: "الأحاديث الحسان فى فضل الطليسان" ثم اعتزل السلطان مؤكداً أن العلم يسعى إليه، والعلماء تأتى إليهم السلاطين، وألف كتاباً بعنوان: "رواية الأساطين فى عدم المجىء إلى السلاطين[١٠].

وفى دفاعه عن شيوخه له إيمانه القوى وحجته الدامغة إيماناً منه بمكانتهم وعلو شأنهم، يتضح هذا فى مقامته التى يدافع فيها عن ابن الفارض، والتى جاءت بعنوان "قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض"[١١].

لقد كانت له فلسفته فى مخاصمة الآخرين ومعاداتهم وكراهيتهم له، فهى – كما زعم- من نعم الله تعالى عليه، ليكون أسوة بالأنبياء والصالحين.

كتب فى إحدى رسائله يقول: "من عرف الناس خص بالبلاء، وأحاط به الرق والولاء، رب امرئ أوليته جميلاً، فكان بالإساءة إليك جميلاً.. أف للدنيا، تقدم الجاهل،وتؤخر الفاضل، وتبا للعلياء يفوتها السابق، والفاضل الكريم، يرى ألم الكلام أشد من ألم الكلام...."[١٢].

لقد كان من أشد خصومه السخاوى محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ)، وابن الكركى (ت٩٢٢هـ) ورجال من الصوفيين، واحتدمت المعركة بينهم فى محاور عدة من أمور الدين والدنيا، كان أشدها معركته مع السخاوى الذى يعد أشهر مؤرخ عاصر السيوطى،حيث ألف السخاوى كتاب "الضوء اللامع" فى تراجم بعض الأعيان من العلماء والأدباء، تتبع فيه عوراتهم، وشهر بسوءاتهم، ومنهم السيوطى، الذى

---

مقامات السيوطى، ٢/٩٣٣ / ١/٣٧٠-

(١٠) راجع ابن إياس. بدائع الزهور،تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٠، ٢/١١٩.

(١١) راجع شرح مقامات السيوطى، ٢/٩٠١.

(١٢) د. مصطفى الشكعة، نقلاً "دور الكلم وغرر الحكم" المخطوطة بدرا الكتب، جلال الدين السيوطى، بحوث ص٣٩٦

وصفه بالسرقة والحمق والغرور والتكبر[١٣]، فرد عليه السيوطى بما أسماه "الكاوى فى تاريخ السخاوى"[١٤]، وهى عبارة عن مقامة ساخرة فى تجريح السخاوى، حيث صب عليه حمم غضبه، وأحرق جلده بلهيب سخطه، مدعياً أن هذا من قبيل الانتصار بعد الظلم،كما قدم للمقامة بهذا النص القرآنى (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(الشورى:٤١- ٤٢).

ادعى السيوطى الانتصار لنفسه ولمشايخه من ظلم السخاوى فى هذه المقامة: "أزلت بها الظلامة، ومحوت بها الظلم، الذى هو ظلمات يوم القيامة، وأخلصت فيها النية،وصححت فيها الطوية، ورددت فيها عن عرض أقوام، لعلهم حطوا رحالهم فى الجنة،وصنت بها الأعراض النفيسة عن قرض ذى الأغراض الخسيسة..."[١٥].

وفيها يصف السخاوى أيضاً بالجهل والكبرياء وضعف الدراية والخلل فى الرواية، حيث يعتمد على أقوال العامة والعجائز، وهو سارق لمؤلفاته من ابن حجر العسقلانى، وظلت المعركة سجالاً بين الطرفين، لكنها اتهامات تدفعها عوامل البغض والكراهية والمنافسة، التى تعتمد على التجريح والنقض، وقد تفتقد إلى الموضوعية والحيدة من كلا الطرفين، ويبدو أن السخاوى كان عنيداً فى خصومته، لا تهدأ له ثائرة، ولا يترك للمصالحة -كما يقولون- باباً.

وقد يكون السيوطى هادئاً فى بعض مخاصماته، يتبع طريق المعاتبة، نجد ذلك واضحاً فى مقامته "اللؤلؤية"[١٦]، فى الاعتذار عن التدريس والإفتاء، اللذين كان له فيهما باع واسع، وشهرة ملأت الآفاق، لكن اشتد الخلاف بينه وبين بعض علماء عصره فى بعض المسائل، وتصدر للفتيا والتدريس منهم من ليسوا أهلاً لذلك، فاختلط الغث بالسمين- كما يدعى- وكان بعض القوم قد لاموا على الاعتزال، ومما ورد فى هذه المقامة معاتباً: "ألا تسألون عن الغدر قبل الملام؟، ألا ترسلون بحسن الكلام قبل الكلام:، ألا تحبون أن تكونوا من النفر الذين يجيئون ويحيون بسلام؟..."[١٧].

---

(١٣) راجع، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة المقدسى، القاهرة ١٣٥٣هـ ٦٥/٤.

(١٤) راجع، شرح مقامات السيوطى، ٩٣٣/٢.

(١٥) نفسه ٩٣٤/٢.

(١٦) شرح مقامات السيوطى ٩٩٦/٢.

(١٧) نفسه ص/٩٩٦

لقد رغب عن التدريس والفتيا لأسباب أخرى أيضا، منها: كبر سنه وكثرة الكذب والخداع والتزوير فى مجتمع ساد الفساد فيه، ويصور جانبا من هذا فيما كتب "كثر القائلون بالزور والشهود،وجم الاختلاف،وقل الائتلاف، وكذب الصادق، وصدق الكاذب المائق، وخون الأمين، وائتمن الخائن ومن يمين... وصار الموت إلى العلماء أحب من الذهب الأحمر، واستعلى الجهال على العلماء، وقهر السفهاء الحلماء،وولى الدين غير أهله، وظهر الفحش من كل جاهل على قدر جهله"(١٨).

وهو يعد هذا الاعتزال حفظا لدينه وشرفه، كما يعده اتباعا لسنة أو نصيحة وردت عن النبى صلى الله عليه وسلم، وألف كتابه "التنفيس فى الاعتذار عن الفتيا والتدريس.

لكن اعتزال السيوطى الفتيا والتدريس، هل كفاه شر خصومه؟ وسور بينه وبين أعدائه؟

الحقيقة أن السيوطى لازمه ما يعكر صفو عزلته، ومن يطارده ذما وهجاء، ومن هؤلاء إبراهيم بن عبد الرحمن الكركى (ت٩٢٢) الذى صور السيوطى ماكان بينه وبين ابن الكركى فى مقامة بعنوان "الدوران الفلكى على ابن الكركى"(١٩)،

ومما ورد فيها "فمازال منذ صار له فى البلد سمعة وامتلأ بذكره بين الناس سمعه، يفوق لى سهام الأذى، ويغبر فى عينى بالقذى، لا أذكر فى مجلسه إلا اضطراب، ولا تنقل له عنى مسألة يجهلها إلا ازدلف الإساءة على واقترب، وأنا فى عزلة عنه، وعن سائر أهل زمانى".

وتابع السيوطى نقض ابن الكركى والسخرية منه فى مقامة أخرى بعنوان "طرز العمامة فى التفرقة بين المقامة والقمامة"(٢٠)، وهى أطول مقاماته وفيها، يصور شخصية ابن الكركى تصويرا مهينا، لم يترك ملمحا من ملامحه الجسمية أو النفسية أو الفكرية إلا هدمه، فضلا عن تتبع أصله ونشأته فى صورته المزرية.

ومن صوره الساخرة قوله : "وجرى فى الشقوق كأنه ابن عروس أو فار، ورقص كما يرقص القرد فى السلسة، كأنه النمس فى الأرض المرسلة، وجأر كأنه نمر ذابح، أو ذب نابح، أو حوت سابح، أو غراب

(١٨) المقامة اللؤلؤية، شرح مقامات السيوطى، ٢/١٠٠٠.
(١٩) شرح مقامات السيوطى ١/٣٧٠.
(٢٠) نفسه ٢/٦١٦

ناعق، أو حمار ناهق، أو ثور له جؤار، أو عجل بنى إسرائيل، الذى وصف عجلاً جسداً له خوار... كتب شيئاً دعاه مقامة وهو قمامة، فيه كناسة وزبالة، وسفالة، وفسالة، كأنما صيغ من خثى البقر، وحلى بقلائد البعر، وطلى بما فى البيض الفاسد من مزر، لا ألفاظ ولا معانى ولا فائدة..."[٢١].

وفيها أيضاً زهو بمكانة السيوطى وتفوقه العلمى والأدبى على ابن الكركى فيقول: "أين الثريا من الثرى؟، وأين الذهب الإبريز من البرا؟، وأين شمس الظهيرة من الديجور؟، وأين ضياء الصدق من ظلمات الفجور؟، وأين الفردوس من الهاوية؟ وأين العروس الزاهية من العروش الخاوية؟، وأين الفرس الجواد من الجحش الأعرج"...."[٢٢].

ومن خصومه أيضاً برهان الدين النعمانى (ت٨٩٨هـ) الذى نقده فى "مقامة الفارق بين المصنف والسارق" وفى "مقامة الفتاش على القشاش"[٢٣] وفيهما سخرية حادة من برهان الدين، طباعه، خلقه، جهله.

ومن أبرز ما عرفنا للسيوطى - فى مكونات شخصيته- هيامة بالطبيعة وتفننه الفائق فى وصفها وصفاً يؤكد تملكه لذوق فنى راق، بدا ذلك واضحاً فى وصفه لجزيرة الروضة فى مقامته "بلبل الروضة" وفى مقاماته الأخرى "المقامة التفاحية"، "مقامة الرياحين"، "المقامة الزمردية"، "المقامة الفستقية"، "المقامة الياقوتية"، وكلها أسماء تستمد مادتها من مفاتن الطبيعة وحسنها، فهل ما صورة يعد رمزاً لشخصيات؟ من المرجح أن السيوطى دفعه إلى ذلك تأكيد تفوقه العلمى والأدبى، فضلاً عن حبه للطبيعة وإثبات إحاطته وخبرته بكل مكوناتها.

وهو إذ يصور جمال ذلك، فإن له تشبيهاته المتتابعة، التى يحاول من خلالها إبراز مظاهر الجمال ومؤثراته، كتصويره للروضة "كأنها بدر والنيل حولها هالة، أو شمس فى وسط سماء ليس عليها سحاب أو غلالة، أو وجه دار عليه طيلسان، أو سرير ملك نصب فى ميدان، أو قلب جيش له مصر والجيزة جناحان، تبرجت بأنواع الأزهار البهجة، لا بالشيح والقيصوم" [٢٤].

وفى مقامة "الرياحين"[٢٥] يصف الورد والنرجس والياسمين والبان، والنسرين والبنفسج والآس والريحان، وهو يقدم الوصف بطريقة

(٢١) شرح مقامات السيوطى ٢/٦٢٦-٦٢٩.
(٢٢) نفسه ٢/٦٤٠.
(٢٣) راجع نفسه ٢/٨١٨- ٨٨٦.
(٢٤) شرح مقامات السيوطى، ١/٢٧٨.
(٢٥) شرح مقامات السيوطى، ١٤٢١-

طريفة متأثراً برواية الأحاديث النبويـة: "حدثنـا الريان عن أبى الريحـان عن أبى الورد أبان، عن بلبل الأغصان، عن ناظر الإنسـان، عـن كوكـب البستان، عن وابل الهتان".

وفى الوصف -فى هذه المقامـة- لـه طريقتـه المميـزة وأسـلوبه الطريف،وذلك بتشخيص الطبيعة وباتباع طريقة المحاورة وكأننا أمام عمـل مسرحى له شخصياته التى تتكلم ألسنتها لتعـرض مالـها مـن ممـيزات وسمات.

وفى "المقامة التفاحية"[٢٦]. كتب وصفاً للرمان والأتـرج والسـفرجل والتفاح والكمثرى والنبق والخوخ وفوائدها، ولم يكد يبقى على شـيىء إلا ذكره مفصلاً فى معرفة شاملة وخبرة نادرة، وكأنه عالم نبـاتى أو طبيـب ألمعى يدرك فوائد ذلك وآثارها الجسمية والنفسية فى ثقة قوية مزيـلاً كـل نوع بنصوص من الشعر تصف الحبة وأثرها، وهو يسـير علـى طريـق النقائض، إذ كل نوع يزهو بما له من مظاهر الجمال والمنافع.

ومن مقامات الطبيعة أيضاً "المقامة الزمردية فـى الخضـروات"[٢٧]، وفيها وصف للقرع والخس والرجلة والبامية والملوخية والخبازى، يصـف فوائدها وآثارها الطيبة.

لكن ما ذكره السيوطى يحتاج إلى مراجعة دقيقة لتأكيد جدوى كل ذلك، على الرغم من أنه ينسب ما كتبه إلى ذوى التخصص والخبرة إلا نادراً.

لم يزل السيوطى يرقى علماً وأدبـاً بالدرجـة التى عبر عنـها "ولـو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتهـا النقليـة والقياسـية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنـة بين اختـلاف المذاهـب فيـها لقدرت على ذلك من فضل الله، لا بحولى ولا بقولى" [٢٨].

كانت ثقـة السيوطى عالية فى تفوقه العلمى علواً لا يغض من مكانـة لآخرين، يعترف بأيـادى أساتذتـه، ويعترف أيضاً بعجزه فى علوم الحساب والمنطق، ثقته فى مقدرته العلمية أهلتـه لأن يسعى إلى الاجتهاد وأن يمنى نفسه بأن يكون على رأس المائة التاسعـة، يجدد للأمة أمور دينها، متفوقاً فى الدراية، معتزاً بمصنفاته فى التفسير والحديث والفقـه واللغـة والأدب والتاريخ[٢٩].

---

(٢٦) نفسه ١/٢٩٢-
(٢٧) نفسه١/٤٧٩.
(٢٨) نفسه ١/٣٣٩.
(٢٩) راجع حسن المحاضرة ١/٣٣٨ وما بعدها.

ومن أهم كتبه التى دونها كتاب "المزهر فى علوم اللغة وأنواعها" الذى جاء فى جزءين: الجزء الأول عن اللغة العربية، أصلها، وضعها، أول من تكلم بها، لهجاتها وأسباب اختلافها، المعرب والمولد، الاشتقاق والنحت.

والجزء الثانى فى أوزان الكلام. وفى الأسماء والكنى،والطبقات والتراجم، والشعر والشعراء، ثم أورد نماذج من خطب العرب ونوادرهم.

والكتاب يعالج هذه القضايا، معتمداً على آراء العلماء ومؤلفاتهم التى تزيد على ستة وستين ومائة مرجع حسبما أحصينا، كما يحمل إشارات إلى كتب ما زالت مفقودة.

لقد اعتمد السيوطى منهجاً له تمييزه الذى يمكن أن يحدد فى نقاط، من أهمها: نسبة النص إلى صاحبه يؤكد هذا قوله: "لا ترانى أذكر فى شيئ من تصانيفى حرفاً واحداً إلا معزواً إلى قائله"(٣٠).

ويؤكد هذا أيضاً فى موضع آخر فيقول: "وقد علم الله والناس من عادتى فى التأليف أنى لا أنقل حرفاً من كتاب أحد إلا مقروناً بعزوه إلى قائله، ونسبته إلى ناقله، أداء لشكر نعمته وبراءة من دركه وعهدته"(٣١).

وقد يكتفى بالمعنى، أو المضمون، وقد يلجأ إلى التلخيص، وقد يميل إلى الاستقصاء متأثراً بطريقة أهل المنطق وعلماء الأصول، كقوله – ملخصاً عن الفخر الرازى-: "الألفاظ إما أن تدل على المعانى بذواتها، أو بوضع الله إياها، أو بوضع الناس، أو بكون البعض بوضع الله والباقى بوضع الناس" (٣٢).

وقد يهمل نسبة النص قائلاً: قال أهل الأصول، قال آخرون، قيل، زعم كثير من المتكلمين، قال بعض العلماء، رجح بعض النحويين، قال أهل التحقيق قال كثير من الفقهاء، قال بعض الضعفاء. وقد يأتى بالمصدر وصاحبه أو بأحدهما دون الآخر، وقد يعتمد على مصدر وسيط مشيراً إلى عجزه عن الوصول إلى المصدر الأصلى، ومن ثم كانت أمانته العلمية واضحة عند استدعاء الدليل على قضية ما، فهو يقدم الدليل النقلى من القرآن والسنة على الدليل العقلى، كما ورد فى تناوله لقضية اللغة، أهى توفيقية أم اصطلاحية؟ (٣٣).

---

(٣٠) جلال الدين السيوطى، المزهر د.ط المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٦، ٣١٩/٢.
(٣١) شرح مقامات السيوطى ٩٥٠/٢.
(٣٢) نفسه ١٦/١.
(٣٣) راجع نفسه ٨/١ وما بعدها.

إذا تناول السيوطي قضية فهو شديد الإحاطة بها ملم بما قيل عنها وبآراء العلماء يتضح هذا من تناوله لنسبة كتاب "العين"، إن كان للخليل أم لغيره؟ فقد جمع هذا الكم الوافر من الروايات والآراء، ولم يقف موقف الناقل، بل الناقد مفندا ومرجحا[٣٤]، ومن ثم فإن شخصيته لا تغيب عند عرضه لكثير من آراء العلماء فى قضية ما، يدافع عمن يراه محقا فى رأيه، رادا طعنات، الدافع إليها خصومات شخصية كطعنات الأزهرى ونفطوية في ابن دريد وتشكيكهما فى مكانته العلمية وفى كتابه الجمهرة[٣٥].

وقد يقوم بدور المنسق بين الآراء والأقوال فى قضية ما، وقد يصل إلى نتائج يعبر عنها "تنبيهات"[٣٦]. وإلى أحكام معبرا عنها بقوله : "وهذا عندى وجه صالح، وحكم متقبل" [٣٧].

يوظف علم الحديث ومصطلحه فى التعامل مع قضايا اللغة والأدب وقد يتضح هذا فى مقدمة كتاب المزهر، عند تناوله لبعض ما روى من اللغة، ولم يصح، يعلل ذلك بقوله: "السبب فى عدم ثبوت هذا النوع عدم اتصال سنده لسقوط راو منه، أو جهالته، أو عدم الوثوق بروايته، لفقد شرط القبول فيه، كما سيأتى بيانه فى نوع من تقبل روايته ومن تود، أو للشك فى سماعه"[٣٨].

وهو يسير على طريقة علماء الحديث، مؤكدا أهميتها فى علاج القضايا وتمحيص الآراء يقول فى مقدمة معامته "الاستنصار بالواحد القهار: "فشأن المحدث أن يكون عند الكتابة قماشا، وعند الرواية فتاشا، ومعنى القماش: أن يجمع فى اجتنائه بين الزهر والهشم، ومعنى الفتاش: أن يفحص،ويجول، فيروى الصحيح ويتجنب السقيم"[٣٩].

ويستعير أيضا بعض المصطلحات كالمتواتر والآحاد والمرسل، وكثيرا ما يلجأ إلى العنعنة فى روايته الوقائع والأحداث والأقوال، وفى مقدمة المزهر ينص صراحة على محاكاته علم الحديث فى تعامله مع قضايا المزهر قائلا: "هذا علم شريف، ابتكرت ترتيبه واخترعت تنويعه وتبويبه،وذلك فى علوم اللغة وأنواعها وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع"[٤٠].

---

(٣٤) راجع المزهر ١/٧٦، ٩٢.
(٣٥) راجع نفسه ١م٩٣، ٩٤.
(٣٦) راجع نفسه ١/٢٥
(٣٧) راجع نفسه ١/١٥
(٣٨) نفسه ١/١٠٣.
(٣٩) شرح مقامات جلال الدين السيوطى ١/٢٢٦.
(٤٠) نفسه ١/١

وقد تجره كثرة المدح للمصدر والإعجاب به إلى نسيان الفرض الأساسى لموقع المصدر،كثنائه على كتاب "مفردات ألفاظ القرآن الكريم" للراغب الأصبهانى (م٥٠٢هـ): "هو لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء فى أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء فى نظمهم ونثرهم، وما عداها أو ما عدا الألفاظ المتفرعات عنها، والمنتقاة منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنَّوى بالإضافة إلى أطايب الثمر، والحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة"(٤١). ولم يأت بما يفيد رأى الراغب الأصبهانى فى القضية موضوع الدراسة والبحث.

ومن القضايا الأدبية المهمة التى شملها المزهر قضية الانتحال فى الشعر، إذ تتبع السيوطى أقوال الرواة والعلماء، وما قيل فى حماد الرواية،وخلف الأحمر اللذين تصدرا صناعة الشعر وانتحاله، ذاكراً نماذج من شعرهما المنتحل، وكانت كتب الطبقات -"كطبقات فحولة الشعراء" لابن سلام و"طبقات النحويين" لأبى بكر الزبيدى و"الآمالى" لأبى على القالى- من أهم المصادر التى اعتمد عليها.

وقد يعتمد السيوطى على مصدر واحد عند تناوله لبعض القضايا، كقضية الفصاحة، إذ اعتمد على كتاب"عروس الأفراح" للشيخ بهاء الدين السبكى، على الرغم من أن مصادر أخرى كانت سباقة إلى ذلك مثل "الصناعتين" لأبى هلال العسكرى، (ت٣٩٥هـ)، و"العمدة فى صناعة الشعر ونقده" لابن رشيق القيروانى (ت ٤٥٦هـ) وقد تستهويه بعض المصادر فيعتمد عليها كثيراً، فى أكثر القضايا، ومن أهمها "فقه اللغة" للثعالبى و "فقه اللغة" لابن فارس، و "الخصائص" لابن جنى" فهى أكثر المصادر تردداً فى علاج قضايا الكتاب.

ومن الملفت للنظر أن السيوطى حريص على أن يورد مذهب المؤلف، إن كان من أهل السنة، أو المعتزلة، أو من الشيعة، لا سيما عند القضايا التى تحتاج إلى أدلة النقل أو العقل.

لقد جاء المزهر فى خمسين باباً، أطلق عليها أنواعاً، شملت القضايا الآتية:

أولاً: تعريف اللغة وإسنادها.

ثانياً: الألفاظ.

ثالثاً: المعانى.

رابعاً: اللطائف والملح.

---

(٤١) المزهر ٢٠١/١.

خامساً: ضبط الأشباه والنظائر.
سادساً: الرواة والعلماء.
سابعاً: أغلاط العرب.
ثامناً: الشعر والشعراء.

وقد يلحظ فى الأبواب تداخلاً وارتباكاً يؤدى إلى التكرار، من ذلك النوع الأول، جاء بعنوان معرفة الصحيح الثابت، والنوع الثانى معرفة ما روى من اللغة ولم يصح ولم يثبت ، وفى الباب الثامن المصنوع ومنه الموضوع والمسروق، وفى الباب العاشر الضعيف والمنكر،والحادى عشر الردئ والمذموم وهى تصنيفات متداخلة.

أما النوع السادس فقد جاء بعنوان من تقبل روايته ومن ترد، إذ يمكن أن يدخل ضمن النوع الرابع والأربعين والذى جاء بعنوان معرفة الطبقات، والحفاظ، والثقاة، والضعفاء.كما أن الكتاب لا يخلو من مآخذ أخرى، ففى النوع السابع والأربعين فى معرفة المتفق والمفترق يقول المؤلف: "ابن هشام: جماعة:
الأول: عبد الملك بن هشام صاحب السيرة والمغازى.
الثانى: محمد بن يحيى بن هشام اللخمى.
الرابع: الشيخ جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام الحنبلى المتأخر صاحب التصانيف المشهورة.

فقد أغفل ذكر الثالث، ومن الغريب أن المحققين لم يشيروا إلى ذلك.

تميل عبارات السيوطى فى كتابه إلى الوضوح والتناسق، وبروز الروح الدينية القوية واستعمال المصطلحات العلمية المعاونة لمصطلحات علم الحديث وعلم الفقه وعلم الأصول، ولا تغيب عنه المحسنات، إذ إنها من سمات الكتابة فى عصره.

وإذا كان السيوطى فى بعض المواطن تأتى عباراته ناقصة، أو أن الاختصار قد يخفى المعنى أو الغرض، كما أشار محققو كتاب المزهر، فلعل السبب فى هذا عدم الاستقرار، وازدحام وقته بكثير من الأعمال فى الكتابة والتصنيف، لأنه كان يشغل نفسه بأكثر من عمل فى وقت واحد وربما كانت العجلة فى إخراج العمل دون مراجعة سبباً فى ذلك، أو أنه كان يبدأ العمل ويتركه ثم يعود إليه ما بين آونة وأخرى.

قضية الشعر والشعراء

تناول السيوطى هذه القضية معتمداً على مصادر ثلاثة، فقه اللغة لابن فارس، والعمدة لابن رشيق، وطبقات فحولة الشعراء لابن سلام الجمحى، فتلك لها أضواء ساطعة يسير على هديها، وهناك مصادر أخرى ترد خافتة الضوء، لكن أكثر نقولاتها توجد فى ثنايا المصادر الثلاثة.

والسيوطى من منطلق هويته الدينية بدأ أولاً بموقف النبى- صلى الله عليه وسلم- من الشعر، وموقف الإسلام أيضاً، وهى قضية مهمة فاضت بها كتب الأدب والنقد، لكن السيوطى كان له عبوره السريع على هذه القضية ولم يقف عند أى من نقولاته المقتضبة[٤٢]، على الرغم من أن العمدة - المصدر المهم فى ذلك- كان بين يديه، ونقل عنه أكثر ما أورده فى قضية الشعر والشعراء، مثل رحلة الشعر بين القبائل العربية، وأولية الشعر، ومشاهير الشعراء والشعراء المقلون،وطبقات الشعراء، والقدماء والمحدثون، وألقاب الشعراء.

والسيوطى فى نقولاته قد لا يتقيد بالنص فى هذه القضية فهو يحذف أو يختصر مثال ذلك فى فضل الشعر نقلاً عن العمدة: "العرب أفضل الأمم،وحكمتها أشرف الحكم،كفضل اللسان على اليد.
وكلام العرب نوعان: منظوم ومنثور"[٤٣].

فهو لم يتقيد بالنص، إذ إن النص عند ابن رشيق ورد بهذا الترتيب: "العرب أفضل الأمم،وحكمتها أشرف الحكم لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد، إذ خروج الحكمة عن الذات، بمشاركة الآلات، إذ لابد للإنسان من أن يكون تولى ذلك بنفسه، أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه. وكلام العرب نوعان ....." [٤٤].

ومثل ذلك نلحظ عليه فى تغيير الصياغة[٤٥]، مما يرجح إلى أنه كان لا يتقيد بالصياغة.

والسيوطى قد ينقل عن كتاب وسيط، كنقله عن ابن رشيق، الذى نقل عن محمد بن أبى الخطاب فى كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب، ومثل ذلك ما نقله نقلاً عن ابن سلام الجمحى[٤٦].

وهذا قد يشكك فى أن السيوطى قد رجع إلى كل المصادر التى أوردها فى كتابه، لاسيما أن بعضها مفقود.

وفى تناوله لمشاهير الشعراء أو المقلين منهم يعتمد أيضاً على ابن رشيق ويختصر كلامه[٤٧].

---

(٤٢) راجع السيوطى. المزهر ٤٦٩/٢، وابن رشيق القيروانى. العمدة ٢٢/١ وما بعدها.
(٤٣) المزهر ٤٧١/٢.
(٤٤) العمدة ١٩/١.
(٤٥) نفسه ٢٠/١-٢١، المزهر ٤٧٢/٢-٤٧٣.
(٤٦) راجع المزهر ٤٨٠/٢، العمدة ٩٦/١.
(٤٧) راجع العمدة ١٠٢/١ وما بعدها، المزهر ٤٧٨/٢ وما بعدها.

وفى تناوله لطبقات الشعراء كان مقلاً فيما أورده، إذ اكتفى بالاعتماد على ابن رشيق على الرغم من أن كتب الطبقات كانت أو فى بهذا، كطبقات فحوله الشعراء لابن سلام، والشعر والشعراء لابن قتيبة.

بقيت إثارة أو مداخلة مفادها أين موقع السيوطى من الابتكار أو الابتداع فى التأليف والبحث؟

من المرجح أن شخصية السيوطى لها تفوقها فى الجمع والتصنيف والوفاء بحاجة الموضوع، الذى يتناوله، ومن ثمَّ كانت قدرته هذه مظهراً من مظاهر التفوق على غيره، فهو أشبه بالبناء الذى تملك أدوات البناء وآلاته، وصنع منها صرحاً جميل التناسق بين غرفاته وأركانه، فأخرج البناء كاملاً محكماً، فقضاياه التى تناولها فى مصادره شبيه بذلك، وهو فى مقدمة المزهر يدعى أنه أتى فيه بالعجائب والغرائب حسنة الإبداع، وأنه فى هذا العمل لم يسبقه سابق، ولا طرق سبيله طارق[٤٨]، وهو إدعاء يحتاج إلى مراجعة، ولا يخلو من الزهو.

هذا على الرغم من أن عصره كان مغمور بالمشاكل السياسية والاجتماعية بين الحكام المماليك وفئات المجتمع من ولاة أو قضاة أو قواد، أو عسكر. لكن حبنا للسيوطى لا يجعلنا نطاوعه فى كل ما يدعى، ففضلاً عن ادعائه هذا ادعى أيضاً أنه على رأس المائة التاسعة، الذى يجدد للأمة شباب عقيدتها، وادعاؤه الاجتهاد، وإتيانه بما لم يأت به شيوخه، وإن كان يبرر هذا من باب الحديث بالنعمة التى أنعم الله تعالى بها عليه[٤٩].

مع كل هذا لا يمكن أن نعده مبتكراً أو مبتدعاً متمتعاً ببراءة الاختراع، فهو مسبوق فيما قاله أو أورده فى كتابه، وقد أشار إلى أنه مقتد بابن فارس فى كتابه فقه اللغة :"والذى جمعناه فى مؤلفنا هذا مفرق فى أصناف كتب العلماء المتقدمين- رضى الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء- وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرق"[٥٠].

(٤٨) المزهر، المقدمة، ص ١.
(٤٩) راجع حسن المحاضرة ٣٣٨/١.
(٥٠) المزهر ٦/١.

## المصادر والمراجع


١- ابن إياس (محمد بن أحمد). بدائع الزهور. تحقيق محمد مصطفى د.ط. القاهرة، ١٩٦٠.

٢- جميل سلطان. فن القصة والمقامة. ط الأولى دار الأنوار. بيروت، ١٩٦٧م

٣- حاجى خليفة. كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون. مطبعة المثنى. بيروت.

٤- ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة. القاهرة ١٩٣٠.

٥- ابن رشيق القيروانى (أبى على الحسن بن رشيق). العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق. محمد محى الدين عبد الحميد. ط الرابعة ١٩٧٢. دار الجيل. بيروت.

٦- السخاوى. (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن). الضوء اللامع. مكتبة المقدسى القاهرة ١٣٥٣.

٧- السيوطى. جلال الدين عبد الرحمن. الإتقان فى علوم القرآن. ط الرابعة. مصطفى البابى الحلبى. القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٨- ـــــــ. بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاح. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٩٦٤.

٩- ـــــــ. حسن المحاضرة فى تريخ مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط الأولى. عيسى البابى الحلبى. القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٠-ـــــــ. المزهر فى علوم اللغة وأنواعها. جزءان. شرح وتعليق. محمد جاد المولى بك. محمد أبو الفضل إبراهيم على محمد البجاوى، د. ط. المكتبة العصرية. صيدا. بيوت ١٩٨٦

١١- السيوطى. مقامات جلال الدين السيوطى. شرح وتحقيق سمير محمود الدروبى، ط الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٢- السيد على حسن (دكتور). جلال الدين السيوطى وفن المقامات د. ط. دار محسن للطباعة. سوهاج.

١٣- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب. المكتب التجارى. بيروت ١٩٨٧.

١٤- الفقى (دكتور محمد كامل) الأدب فى العصر المملوكى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦.

١٥- قرشى عباس دندراوى (دكتور). أدب السيوطى. دراسة نقدية. د.ط. دار المعارف.

١٦- مجموعة من الباحثين. (مؤتمر السيوطى ٦-١٠ مارس ١٩٧٦) المجلس الأعلى لرعاية الفن والآداب. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.